﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قدر الله غالب، ومشيئته نافذة لا محالة

لمّا بيّن ربُّ العزّة سبحانه أنّه قدَّر ليوسف ﷺ أن يباعَ ويشترى؛ فيصير بذلك رقيقًا، وكانت العادةُ جاريةً أنَّ الرقَّ امتهان؛ أخبر سبحانه أنَّ ذلك لم يجرِ على يوسف ﷺ؛ فقد رقَّق سبحانه له قلب من اشتراه؛ فأحسن وفادته، وأنزله منزلًا مرضيًّا كريمًا، ثمَّ أخبر سبحانه أنَّه مُصَيِّرُهُ بعد ذلك إلى ما هو أعزّ وأكرم؛ فهو العزيز الذي لا يُمنع عطاؤه، ولا يُردّ قضاؤه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثۡوَىٰهُ﴾: الثَّواء: طول المُقَام مع الاستقرار، يقال: ثَوَى بالمكان يَثْوِي ثَواء: أقام به[2]. وأصله يدلُّ على الإقامة[3].

والمَثْوى، مكان الثَّواء، وهو الموضع الذي يقام به والمَنزِل[4]. وقوله تعالى حاكيًا قول عزيز مصر: ﴿أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ﴾. أي: أكرمي مُقامه عندنا[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485، وابن عادل، اللّباب: 11/52، والبقاعي، نظم الدرر: 10/48، والمراغي، تفسير المراغي: 12/125، رشيد رضا، تفسير المنار: 12/225، والهرري، حدائق الروح والريحان: 13/365،

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ثوى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوى).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ثوى).

(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ثوى).

2) ﴿مَكَّنَّا﴾: المكان: الموضع الحاوي للشَّيء[1]. وأصله من رسوخ الشَّيء مجتمعا[2]، ومَكَّنته من الشَّيء أُمَكِّنه تمكينًا، وأَمْكَنْتُه منه: إذا ظَفِر به، وقَدَر عليه وأطاقه[3]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. أي: "جعلنا له فيها مكانًا، يقال مكَّنه فيه، أي: أثبته فيه. ومكَّن له فيه، أي: جعل له فيه مكانًا"[4].

3) ﴿غَالِبٌ﴾: الغَلَبة: القَهْر، يقال: غَلَب يَغْلِب غَلَبا وغَلَبَة: قَهَر. وهو غالب، أي: قاهر[5]. وأصله يدلُّ على قوَّة وقَهْر وشِدَّة[6].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾. أي: قوي قادر على أمر يوسف، بحيث لا يمنعه عمَّا يشاء أحد، ولا ينازعه فيما يريد أحد، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النصر والتمكين لا يتأتَّيان إلا بعد ضروب من الصَّبر والامتحان

يصوِّر السِّياق القرآنيُّ لطف الله تعالى بعبده ونبيِّه يوسف عليه السلام، بعد شديد محنته وعظيم بلائه؛ حيث قيَّض له سبحانه مَنْ يشتريه، ويحسن وفادته، وهو قطفير الذي اشتراه من مصر لزوجته زُليخَا وقال لها: (أحسني منزلته وموضع مقامه؛ رجاء أن ينفعنا في قضاء مصالحنا، وفي مختلف شؤوننا، أو نتبنَّاه ولدًا)؛ إذ لم يكن ينجب.

ولنعلِّم يوسف من عبارة الرؤيا جعلنا له في الأرض مكانة عالية رفيعة عند عزيز مصر؛ بأنْ صيَّرناه ملكًا على خزائنها، وذلك بعد

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكن).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262، والآلوسي، روح المعاني: 6/398.
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلب)، والبغوي، معالم التنزيل: 2/483، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/102، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/159، والآلوسي، روح المعاني: 6/399.

إنقاذه من أيدي إخوته بعد أن همُّوا بقتله ومن البئر بعد إلقائهم فيه، واللّه سبحانه مُسْتَوْلٍ على أمر يوسف يَسُوسُه ويدبِّره ويحوطه فلا يردُّه رادٌّ ولا يمنعه مانع ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون خفايا حكمته ولطف تدبيره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

حسن التخلُّص:

لمَّا قال اللّه تعالى في الآية السَّابقة: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أثيرت في النُّفوس أسئلة حول المصير الذي صار له الكريم ابن الأكارم ﷺ بعد ما بيع بثمن بخس.

من بيع إلى بيع، ومن شراء إلى شراء، يدبِّر الله الأقدار، ويُسبغ الله الآلاء

فطوى القرآن ذِكر ما فُهِمَ من القصَّة ممَّا لا تترتَّب على ذكره فائدة أو موعظة، وانتقل من ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إلى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ "فهذا الشِّراء غير الشِّراء السَّابق الذي كان بثمن بخس"[2].

فانتقلت الآيات الكريمة من حدث إلى حدث آخر مع مراعاة الملاءمة بينهما، بحيث لا يشعر السَّامع بالانتقال من المعنى الأوَّل إلَّا وقد وقع في الثَّاني لشدَّة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتَّى كأنَّهما قد أفرغا في قالب واحد[3].

وهذا الانتقال البليغ يسمَّى بحسن التَّخلُّص، وهو من أساليب القرآن الرَّفيعة وفنونه البديعة[4].

دلالة الواو في: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾:

يطوي القرآن ما يتَّضح من السِّياق فهمُه، وقد علا على كلِّ بيان نسجه ونظمُه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ هي العاطفة، حيث عطفت جملتها على محذوف مقدَّر مفهوم من السِّياق؛ أي: دخلوا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/61، والبغوي، معالم التنزيل: 4/225.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/397.
(3) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 280.
(4) الشوابكة، غرر البيان، ص: 22.

مصر، وعرضوه للبيع، فاشتراه عزيز مصر الذي كان على خزائن مصر[1].

وقد حسن الوصل لما بين الجملتين من المناسبة، ولاتِّفاقهما في الخبريَّة والتَّعبير بالماضي، وهو المعروف في البلاغة بالتَّوسُّط بين الكمالين.

إضافة إلى ما في هذا العطف على المحذوف المقدَّر من براعة السَّرد، وبلاغة الإيجاز بالحذف الذي تضمَّن جملًا كثيرة، ودقَّة التَّعبير، وحسن التَّخيُّر.

نكتة إسناد القول لمن اشترى يوسف عليه السلام:

أكرم الله الكريمَ ابنَ الأكارم عن الامتهان، وأحاطه بالرِّعاية والإحسان

إسناد القول لمَن اشتراه من مصر، وهو عزيزها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يدلُّ على أنَّه أمر به زوجته أمرًا مباشرًا بلا واسطة، وفيه إشارة إلى أنَّ يوسف عليه السلام كان حاضرًا هذه المحاورة بين الزَّوجين، وفيه دليلٌ على شدَّة تعلُّق العزيز بيوسف عليه السلام.

ولمَّا كانت العادة جارية بأنَّ القِنَّ يُمتَهن، أخبر تعالى أنَّه أكرمه عن هذه العادة، فقال منبِّهًا على أنَّ شراءه كان بمصر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: أخذه برغبة عظيمة، ولو توقَّفوا عليه غالَى في ثمنه[2].

بلاغة مجيء المسند إليه اسمًا موصولًا:

يُعرِض القرآن عن ذكر ما لا يهمُّ في العبرة من القصَّة، ولا يزيد في العظة

من دواعي اختيار المسند إليه اسمًا موصولًا: تقرير الغرض المسوق له الكلام[3]، وتعظيم شأن المحكوم به[4].

وكلا الأمرين مراد هاهنا، فأمَّا الأوَّل فلمْ يبيِّن الكتاب الكريمُ اسم الذي اشتراه في مصر، ولا منصبه، ولا اسمَ امرأته؛ لأنَّ ذلك لا يهمُّ في العبرة من القصَّة، ولا يزيد في العظة. فالمراد بيان أنَّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/468.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.
(3) المراغي، علوم البلاغة، ص: 117.
(4) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 114.

الذي اشترى يوسف ﷺ قد أوصى به امرأته خيرًا لِما تفرَّس فيه من مخايل النَّجابة[1].

وأمَّا الآخر فلبيان أنَّ المحكوم به (وهو إيصاء المشتري زوجتَه بيوسف ﷺ خيرًا) هو أمر عظيم الشَّأن؛ إذ لم يكن معهودًا أنْ يوصي السَّادةُ زوجاتهم بفتيانهم؛ إذ العادة في القِنِّ أن يُمتَهَن، فكان هذا الأمر أمرًا عظيمًا، وقد سِيق للدَّلالة على إكرام الله تعالى نبيَّه يوسف ﷺ من المذلَّة والمهانة.

ويضاف إلى ما سبق أنَّ في التَّعبير بالموصول تشويقًا للنُّفوس، وإثارة لحبِّ الاستطلاع فيها؛ حتى تظلَّ شاخصة إلى هذا الرَّجل، باحثةً عنه، إلى أن يلقاها هذا اللِّقاء المثير الذي يطلُع عليها به في سُدَّةِ الحكم، وعلى كرسيِّ الوزارة.. إنَّه عزيز مصر[2].

فائدة الجار والمجرور ﴿مِن مِّصْرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿مِن مِّصْرَ﴾؛ أي: في مصر[3]. و﴿مِّصْرَ﴾؛ أي: البلدة المعروفة، والتَّعبير بهذا دون ما هو أخصر منه للتَّنبيه على أنَّ بيعه ظلم، وأنَّه لم يدخل في ملك أحد أصلًا[4].

من قعر جُبٍّ مظلم إلى عزِّ قصر منيف، يسيِّر الله القدر، وفي ذلك عبرة للمعتبِر

وبيانُ كونِه من مصرَ لترتيب ما يتفرَّع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ مَن اشتراه مِن الملتقطين بما ذكر من الثَّمن البخس[5].

فهذا الشِّراء غير الشِّراء السَّابق الذي كان بثمن بخس، وزعمُ اتِّحادهما ضعيف جدًّا وإلَّا لا يبقى لقوله: ﴿مِن مِّصْرَ﴾ كثيرُ جدوَى[6].

(1) المراغي، تفسير القرآن: 12/125، والهرري، الحدائق: 13/365.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1250.
(3) نووي الجاوي، مراح لبيد: 1/527، والهرري، الحدائق: 13/365.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/397.

إيثار استعمال: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾:

كـان العـزيـز عـقـيـمًـا، وكـان احتياجه للأبناء عظيمًا

قوله تعالى: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾، فامرأته المراد بها: زوجته[1]. وقد أوثر في هذا السِّياق استعمال (امرأة) دون (زوجة)؛ لأنَّ البيان القرآنيَّ لم يستخدم لفظة (زوج) إلَّا عند تحقُّق الصُّورة المُثلَى للتَّزاوُج أو التَّكامُل بين الرَّجُل والمرأة، كأنْ تظلَّ العلاقة قائمة ببقاء الزَّوج على قيد الحياة، مع وجود التَّجانُس أو التَّكامُل الشُّعوري بين الطَّرفين، وتماثلهما في عقيدة التَّوحيد، وصلاحية الطَّرفين للإنجاب. أمَّا إذا اختلفت تلك الصُّورة في أي جانب من جوانبها فإنَّه يستخدم لفظة (امرأة) حتى مع بقاء عقد الزَّوجيَّة بينها وبين الرَّجل[2].

فإذا أُضيف إلى ما سبق أنَّ سبب اتِّخاذ العزيز يوسفَ ﷺ ولدًا هو كونه لا يولد له كما ذكر المفسِّرون - تبيَّن أنَّ الطَّرفين (العزيز وامرأته) غير صالحين للإنجاب، فلذلك أوثر لفظ (امرأة) على لفظ (زوج). وممَّا يدعم هذا أمران: أحدهما: ما حكاه القرآن الكريم عنها من مشهد مراودتها يوسف ﷺ عن نفسه.

والآخر: تعبير القرآن عن زوجها بلفظ (السَّيِّد) دون لفظ الزَّوج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: 25].

معنى اللَّام ودلالتها في: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾:

اللام مع الشراء للتعليل، ومع القول للتبليغ

اللام في قوله تعالى: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ من صلة القول[3]، وهي متعلِّقة بـ ﴿وَقَالَ﴾، لا بـ ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾[4]، فهي للتَّبليغ؛ نحو: قلتُ لك[5].

وقيل: يتنازعها كلا الفعلين: ﴿وَقَالَ﴾، و﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾، فيكون اشتراه

(1) طنطاوي، الوسيط: 7/335.
(2) حسن طبل، وعبد الرحمن فودة، في البلاغة القرآنية، ص: 23 - 28.
(3) الواحدي، البسيط: 12/59.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/454.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/255.

ليهبه لها لتتَّخذه ولدًا. وهذا يقتضي أنَّهما لم يكن لهما ولد[1]. وإنَّما وَكَلَه إليها لتربِّيه تربية الأُمِّ ولدَها[2].

دلالة الأمر في: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾:

صيغة الأمر في قول العزيز لامرأته: ﴿أَكْرِمِي﴾ تفيد الوجوب. وتدلُّ على شدَّة عناية العزيز بيوسف ﷺ؛ إذ إنَّه أوكل مهمَّة رعايته والعناية به إلى امرأته دون جواريها أو وصيفاتها، وأمرها به أمرًا مباشرًا[3].

توجيه المراد بالمثوى، وأثره في المعنى:

قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾؛ أي: أكرمي منزله ومقامه عندك، من: ثوى بالمكان، إذا أقام به، ومصدره الثَّواء، يقال: ثوى يثوي ثوًا. والمعنى: أكرميه ما كان عندك، وأحسني إليه في طول مقامه عندنا. فالمثوى على هذا بمنزلة الظَّرف، كأنَّه قال لها: أحسني إليه مدَّة مقامه عندنا. والمثوى على هذا مصدر.

الإكرام إعطاء المراد على جهة الإعظام، وشموله للمكان والزَّمان مبالغة في تحقيقه

وقيل: المثوى: الموضع الذي يقيم فيه، وعلى هذا أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه، دون إكرام نفسه فقط، ومعنى الإكرام، إعطاء المراد على جهة الإعظام[4].

فـ﴿مَثْوَاهُ﴾؛ أي: موضع مقامه، وذلك أعظم من الأمر بإكرامه نفسه، فالمعنى: أكرميه إكرامًا عظيمًا بحيث يكون ممن يُكرَم كلُّ ما لابَسه لأجله، ليرغب في المقام عندنا[5].

الكناية في: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾:

في قول العزيز لامرأته عن يوسف ﷺ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أمر

إكرام المحلّ مبالغة في إكرام الحالّ، وهذا مِن شيم الأكارم ذوي الأفضال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/245.
(2) الجرجاني، درج الدرر: 3/995.
(3) البسيلي، النكت والتنبيهات: 2/241.
(4) الواحدي، البسيط: 12/60.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.

منه لها بإكرام يوسف ﷺ نفسه، وقد عُبِّر عن ذلك بإكرام المثوى دون إكرام النَّفس للدَّلالة على أنَّه كان ينظر إلى يوسف ﷺ على سبيل الإجلال والتَّعظيم، وهو كما يقال: سلام الله على المجلس العالي مرادًا به السُّلطان[1].

فهو إذًا كناية عن إكرام نفسه وإحسان تعهُّده[2]، على أبلغ وجه وأتمِّه؛ لأنَّ مَن أكرم المحلَّ بإحسان الأَسِرَّة واتِّخاذ الفراش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يُكرم[3]. فالمعنى: اجعلي إقامته عندك كريمة؛ أي: كاملة في نوعها[4].

ويضاف إلى ما سبق أنَّ في الكلام استعارة[5]، وذلك من حيث إنَّه جعل المثوى (المكان) بمنزلة إنسان عاقل شريف يُكرم، فشبَّهه به، ثمَّ حذف المشبَّه به، وهو الإنسان الشَّريف، وجاء بأحد لوازمه، وهو الإكرام على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

بلاغة الفصل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾:

قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ فكأنَّها قالت: ما سبب إيصائك لي بهذا دون غيره؟ فجاء الجواب مبيِّنًا العلَّة من هذا الأمر، فاستأنف قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن﴾؛ أي: إنَّ حاله خليقٌ وجدير بأنْ ﴿يَنفَعَنَآ﴾[6]. أي: يقوم بإصلاح مهمَّاتنا، أو نتَّخذه ولدًا[7].فمِن ثمَّ أُوثر الفصل على الوصل.

دلالة الرجاء الدّالّ عليه: ﴿عَسَىٰٓ﴾:

﴿عَسَىٰٓ﴾ فعل يفيد الرَّجاء، وتستعمل في الأمر الذي يتحقَّق

كـان العـزيـز صادق الفراسة، ثـاقـب الـفـكـر، بـعـيـد الـنَّـظـر، صادق البصيرة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/435، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/76.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/231.
(3) القنوجي، فتح البيان: 6/306.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/246.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/231.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/435.

حدوثه فيما بعد[1]. فقول العزيز: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾؛ أي: لعلَّه أن ينفعنا في أمورنا الخاصَّة إذا تدرَّب فيها وعرف مواردها ومصادرها، أو شؤون الدَّولة العامَّة لِما يلوح عليه من مخايل الذَّكاء والنَّجابة، أو نتبنَّاه ونقيمه مقام الولد، فيكون قرَّة عين لنا ووارثًا لمالنا ومجدِنا إذا تمَّ رشدُه ونضج عقلُه. وفي الآية إيماء إلى شيئين: **أحدهما**: أنَّ العزيز كان عقيمًا، **والآخر**: أنَّه كان صادق الفراسة، ثاقب الفكر، فقد استدلَّ مِن كمال خُلُق يوسف عليه السلام وخَلْقه على أنَّ حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته ممَّا يكمِّل استعداده الفطريَّ، فالتَّجارب دلَّت على أنَّه لا يفسد الأخلاق شيء أكثر ممَّا تفسدها البيئة الفاسدة وسوء القدوة[2].

معنى ﴿أَوۡ﴾، ودلالتها:

﴿أَوۡ﴾ في قول العزيز: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ للتَّخيير بين أمرين، فالمراد من نفعه أحد أمرين: إمَّا الرِّبح فيه إذا باعوه، أو معاونته لهم إذا أبقوه، وهذان غير اتِّخاذه ولدًا. ويصحُّ أن تكون ﴿أَوۡ﴾ مانعةَ خلُوٍّ، فتجوِّز الجمع، بمعنى أنَّه لا يخلو الحال من حصول أحد هذين الأمرين المتوقَّعين أو حصولهما جميعًا[3].

سرّ تقديم رجاء نفعه على اتخاذه ولدًا:

قول العزيز لامرأته عن يوسف عليه السلام: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ يعني: نبيعه بالرِّبح إن أردنا البيع، أو ينفعنا بالخدمة إن لم نبعه. ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾؛ يعني: أو نعتقه ونتبنَّاه[4].

كان تعلُّق العزيز بيوسف عليه السلام شديدًا، ورجا أن يظلّ في كنفه أمدًا بعيدًا

ففي هذا تدرُّج من الأقصى (وهو البيع بالرِّبح) إلى الأدنى

(1) الهلال، الثري الجامع: 5/326.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 12/126.
(3) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/20.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 3/19.

(وهو اتِّخاذهما إيَّاه ﷺ ولدًا) فأراد العزيز أن يجعل الإحسان إلى يوسف ﷺ سببًا في اجتلاب محبَّته إيَّاهما، ونصحه لهما فينفعهما، أو يتَّخذانه ولدًا فيبرَّ بهما وذلك أشدُّ تقريبًا[1].

فإن قيل: إنَّ اتِّخاذهم إيَّاه ولدًا محقَّق بالشِّراء، فكيف يكون فيه معنى التَّرجي؟ وكيف قال: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وهو ملكه، والولديَّة مع العبديَّة تتناقض؟ فالجواب: إنَّما يتَّخذونه ولدًا إذا ظهر لهم نجابته ومنفعته، وذلك بأن يعتقه العزيز ثم يتَّخذه ولدًا بالتَّبنِّي، وكان التَّبنِّي في الأمم معلومًا عندهم[2].

ففي ما سبق دليل على شدَّة تمسُّك العزيز بيوسف ﷺ وتعلُّقه به، وأنَّه يؤمِّل فيه أن يبقى عنده أمدًا بعيدًا حتى يصير له بمنزلة الولد.

دلالة تنكير ﴿وَلَدٗا﴾:

أفاد تنكير كلمة ﴿وَلَدٗا﴾ في قول العزيز: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أمرين: **أحدهما**: التَّخصيص؛ أي: ولدًا على نحو خاصٍّ، وهو التَّبنِّي، ويكون خاصًّا بنا فلا يُباع، ولا يُمتَهَن، **والآخر**: التَّعظيم والتَّفخيم؛ إذ السِّياق سياق مدح وإكرام.

بيان التَّشبيه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

كاف: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في محلِّ نصب على أنَّه نعت مصدر محذوف، والإشارة بـ (ذلك) إلى ما تقدَّم من إنجائه ﷺ من إخوته، وإخراجه من الجبِّ، وعطف قلب العزيز عليه[3]؛ أي: ومثل ذلك الإنجاء والعطف مَكَّنَّا له؛ أي: كما أنجيناه وعطَّفنا عليه العزيز، كذلك مكَّنَّا له في أرض مصر، وجعلناه ملكًا يتصرَّف فيها بأمره ونهيه[4].

آلاء الله على أوليائه سابغة، لم تُرفع عنهم طرفة عين ولا أدنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/246.
(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 2/380، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/160.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/17.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/454.

فشبَّه التَّمكين له ﷻ في الأرض بالتَّوفيق للأسباب التي صار بها إلى ما صار بالنَّجاة من الهلاك، والإخراج من البئر[1]. فهو تشبيه مجمل[2].

والمشبَّه به ما عُلِم ممَّا قبله. والمشبَّه: تمكينه في الأرض يتصرَّف فيها على ما أراده الله تعالى له[3]. أو يكون المشبَّه به هو التَّمكين المقصود نفسه، وفائدة هذا التَّشبيه أنَّه جيء به تنويهًا بأنَّ ذلك التَّمكين بلغ غاية ما يُطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتمَّ منه لما كان إلَّا أن يُشبَّه بنفسه، فيكون الكاف في محلِّ نصب على المفعول المطلق. والتَّقدير: مكَّنَّا ليوسف تمكينًا كذلك التَّمكين[4].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم من كلام العزيزِ، وما فيه من معنى البُعد لتفخيمه[5]. والكاف مقحم للدِّلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحامًا لا يكاد يُترك في لغة العرب ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مثلُك لا يبخل[6].

إيثار فعل التَّمكين، وصيغة الماضي:

قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾؛ أي: جعلنا له فيها مكانًا. يقال مكَّنه فيه؛ أي: أثبته فيه. ومكَّن له فيه؛ أي: جعل له فيه مكانًا. ولتقاربهما وتلازُمهما يُستعمل كلٌّ منهما في محلِّ الآخر[7].

ثبوت مكانة يوسف ﷺ ومنزلته

والمراد بالمكان هنا: المكانة والمنزلة لا البُعد المجرَّد[8].

(1) الواحدي، البسيط: 12/61.
(2) الهرري، الحدائق: 13/412.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 5/165.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/246.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/263.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/398.

فقد ألقى الله تعالى على يوسف ﷺ محبَّة منه سبحانه، وقبولًا لدى الخَلْق، وبهاءً في الوجه، وحُسنًا في الخُلُق، ممَّا رسَّخ أقدامه ﷺ في مكانه من الأرض، ومكانته من القلوب. ويفيد التَّعبير بالماضي توكيد وقوع الفعل، وثبوته على حال معيَّنة في الماضي.

معنى اللَّام ودلالتها في: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾:

الفعل (مكَّن) يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾ [الأعراف: 10]، ويتعدَّى باللَّام كما هاهنا، والمراد: (نعطيه مكانة ورتبة عالية في الأرض)[1]، فاللَّام: لام الاختصاص[2]، وهي تفيد معنى التملُّك، وهذا ما دلَّت عليه الآيات اللَّاحقة، حيث صار يوسف ﷺ عزيز مصر، والآمرَ النَّاهي فيها.

معنى حرف الجرِّ ﴿فِى﴾ ودلالته:

﴿فِى﴾ ظرفيَّة[3]، وتعني جعلَه وجيهًا بين أهلها ومُحَبَّبًا في قلوبهم كافَّة كما في قلب العزيز[4]. وفيها دلالة على رسوخ قدم يوسف ﷺ في منزله من مصر، ومنزلته في قلوب أهلها، كما تُثبَّت دعائم البيت وأركانه في الأرض فترسخ ويصعب إزالتها.

دلالة (ال) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، والمقصود بها:

﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرض مصر، يتصرَّف فيها بأمره ونهيه؛ أي: حكَّمناه فيها[5].فاللام فيها للعهد الذِّكري لقوله تعالى في أولَّ الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾.

وهي كالأرض كلِّها لكثرة منافعها بالملك فيها لتمكُّنه من الحكم بالعدل[6]. فهو من باب إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ[7].

فائدة عطف جملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ اختُلف في هذه الواو، فقيل: إنَّها

(1) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/21.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/326.
(3) الهلال، الثري الجامع: 5/326.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/255.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.
(7) الهرري، الحدائق: 13/412.

مستأنفة، وخبرها مضمَر على تقدير: ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث فعلنا ذلك، أو مكَّنَّا له في الأرض. وقيل: هي عاطفة على معنى الكلام المتقدِّم بتقدير: دبَّرنا ذلك لنمكِّنه في الأرض ولنعلِّمه[1].

فكأنَّه قيل: ومثلَ ذلك التَّمكينِ مَكَّنَّا ليوسف في الأرض، وجعلنا قلوب أهلها كافَّة محالَّ محبَّتِه؛ ليترتَّب عليه ما ترتَّب ممَّا جرى بينه وبين امرأةِ العزيز، ولنعلِّمه تأويل الأحاديثِ. وترك المعطوفِ عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذَّات[2]؛ لأنَّ الله لمَّا قدَّر في سابق علمه أن يجعل يوسف ﷺ عالمًا بتأويل الرُّؤيا، وأن يجعله نبيًّا أنجاه من الهلاك، ومكَّن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله[3].

تحقيق الكمال يكون بأمرين؛ هما القدرة والعلم، وكلاهما أُعطي يوسف ﷺ

وأمَّا فائدة عطفه على سابقه فلأجل أنَّ تحقيق الكمال يكون بأمرين؛ هما: القدرة والعلم، أمَّا تكميله في صفة القدرة فبقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وأمَّا تكميله في صفة العلم، فبقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[4].

فالحاصل أنَّ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ففُهم من الجملة الأولى تمكينه في الأرض، وهو نعمة الملك، ومن الثَّانية: تعليمه الأحاديث، وهو نعمة العلم، وهذا هو المقصود من الإنجاء والتَّمكين: التَّعليم؛ ليدبِّر أمور عباده، لا أن يتمتَّع باللَّذات. والمقصود من التَّعليم: العمل، لا ليجاري به العلماء، ويماري به السُّفهاء، أو يصرف وجوه النَّاس إليه[5].

معنى حرف اللام في: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ ودلالته:

اللَّام في قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ للتَّعليل[6]؛ أي: مكَّنَّا له في الأرض لكي

(1) الواحدي، البسيط: 12/61 - 62.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/263.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/247.
(4) الزحيلي، المنير: 12/235.
(5) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/285.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/469.

نعلِّمه من تأويل الأحاديث[1]، ولنوحي إليه بكلام منَّا، ونعلِّمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرُّؤيا[2]؛ أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل، ويدبِّر أمور النَّاس، ويعلَم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفِّذها، أو تعبير المنامات المنبِّهة على الحوادث الكائنة ليستعدَّ لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحلَّ كما فعل لسِنِيه[3]. وقيل: اللام لام العاقبة في الفعل المذكور، والفعل المقدَّر[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع في: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾:

التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ يفيد التَّجدُّد والاستمرار، وهذا هو المناسب لمقام التَّعليم؛ لأنَّه يكون متجدِّدًا بتجدُّد الحوادث، ومستمرًّا باستمرار الوحي، ومتكرِّرًا بتكرُّر دواعيه. وهذه نعمة من الله عظيمة من حيث إنَّه سبحانه لم يترك أنبياءه دون تعليم متجدِّد، وتوجيه دائم، وتربية مستمرَّة.

سرُّ التَّعبير بنون العظمة في ﴿مَكَّنَّا﴾، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾:

عظمة الفعل دليل على عظمة الفاعل، ولا أعظم من العظيم ﷻ

التَّعبير بنون العظمة يدلُّ على أنَّ الفعل المسند إليها فعل عظيم، فإنجاء يوسف من الجُبِّ بهذه الصُّورة كان عظيمًا من حيث التَّقدير، فلو تأخَّر إلقاؤه فيه ربَّما فاتت السَّيَّارة، ولو تأخَّر وصول السَّيارة ربَّما ترتَّب على ذلك شدَّة يقاسيها عليه السلام قد تُفضي إلى الهلاك. علاوة على أنَّ ترتيب بيعه عليه السلام في مصر، وشراء العزيز إيَّاه، وإيصاءَه امرأتَه به خيرًا كان أمرًا عظيمًا كذلك حيث تربَّى في بيت رئيس وزراء الملك، فحصَّل علمًا بإدارة شؤون الملك والحكم عظيمًا، وقد نفعه هذا عندما تولَّى هو سدَّة الحكم. فضلًا عمَّا أُلقي في قلوب مَن رآه مِن محبَّته عليه السلام. فهذا التَّرتيب والتَّقدير كان أمرًا عظيمًا جليلًا،

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/226.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/160.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/159.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.

إذ إنَّ وصول رجل لسدَّة حكم أرض قد وصل إليها مبيعًا من رفقة مسافرين؛ لهُوَ أمر جليل حقًّا، فلذلك قال الله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾؛ أي: "بما لنا من العظمة"[1].

معنى حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ ودلالته:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَأۡوِيلِ﴾ تبعيضيَّة، والمعنى: ولنعلِّمه بعضَ تعبير الرُّؤيا، ومعرفة حقائق الأمور، ممَّا ينتهي إلى غاية التَّمكين لدى المَلِك[2].

وفيه دليل على أنَّ هذا العلم هو بعض فضل الله تعالى، وهو قبس من أنواره ﷻ، ومصداق هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85].

سرُّ إيثار التَّعبير بالأحاديث دون الرُّؤى أو الأحلام:

الأحاديث أعمُّ من الرُّؤى والأحلام

﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾: يصحُّ أن يكون جمع حديث بمعنى الشَّيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التَّمام. وهو المعنيُّ بالحكمة، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصحُّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدَّث به، فالتَّأويل: تعبير الرُّؤيا. سمِّيت أحاديث؛ لأنَّ الرُّؤى يتحدَّث بها الرَّاؤون، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسِّرين. واستدلُّوا بقوله في آخر القصَّة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: 100]. ولعلَّ كلا المعنيين مرادٌ بناءً على صحَّة استعمال المشترك في معنييه، وهو الأصحُّ، أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازًا معجزًا؛ إذ يكون قد حُكي به كلام طويل صدر من يعقوب ﷺ بلُغته يعبِّر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 12/126.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/216.

وممَّا قيل في معنى ﴿ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أيضًا أنَّها الكتب المنزَّلة، أو مأثورات النَّبيِّين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﷺ، وتأويلها: معرفتها، ومعرفة مآلها، أو العلم والحكمة[1].

فمن ثمَّ أوثر التَّعبير بالأحاديث؛ ليندرج تحت اللفظ كلُّ ما قيل فيه من معانٍ، فكلُّ ذلك قد علَّمه الله تعالى نبيَّه يوسف ﷺ. بخلاف لو قيل مكانها (الرُّؤى)، أو (الأحلام)، فإنَّ مدلولها واحد لا يتعدَّى إلى غيره.

معنى اللام في ﴿ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾:

يصحُّ أن تكون اللام جنسيَّة مرادًا بها جنس الأحاديث، لا كلُّها، فيتعيَّن منها: أحاديث الأنبياء ﷺ، وتأويل الرُّؤى والأحلام.

ويصحُّ أن تكون للعهد الذِّهنيِّ، مشارًا بها لِما تقدَّم في أوَّل السُّورة من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6].

نكتة اختصاص يوسف ﷺ بتأويل الأحاديث:

معرفة مآلات الأمور والأقوال كانت طريق يوسف ﷺ للتَّمكين والحكم

ممَّا قيل في معنى ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾: أنَّ المقصود: تأويل الرُّؤيا، وقد اختُصَّ بها يوسف ﷺ لأنَّها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التَّمكُّن[2]، وقد كانت الطَّريق لتمكينه في الأرض وإقامة العدل فيها[3].

فضلًا عمَّا في تأويل الأحاديث من معرفة حقائق الأمور، وكيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات على قدرة الله تعالى وحكمته وجلاله[4]، وكلُّ هذا مما يتطلَّبه تقليب الفكر والنَّظر في إدارة الحكم، وشؤون الملك.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/17.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.
(4) الزحيلي، المنير: 12/235.

بلاغة الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ احتباك تقديره: مكَّنَّا ليوسف في الأرض (فملَّكناه)، (وآتيناه النُّبوَّة) لنعلِّمه من تأويل الأحاديث.

فأثبت التَّمكين في الأرض ليدلَّ على لازمه من المُلك، والتَّمكين من العدل، وذكر التَّعليم ليدلَّ على ملزومه وهو النُّبوَّة، فدلَّ أوَّلًا بالملزوم على اللَّازم، وثانيًا باللَّازم على الملزوم[1].

دلالة الواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ استئنافيَّة[2]؛ ذلك أنَّ الكلام قبلها قد تمَّ، ثمَّ قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: يفعل ما يشاء في خلقه، لا يقدر أحد على منعه ولا غلبته، وليس هذا للمخلوقين، فهذا معنى: ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[3].

الله لا يغلبه غالب، ولا يبطل إرادته منازع، فهو قادر على أمره من غير مانع

وقد حسن الفصل هنا دون الوصل لاختلاف الجملتين في الاسميَّة والفعليَّة، فجملة: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ فعليَّة، وجملة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ﴾ اسميَّة. فضلًا عمَّا قد يؤدِّي إليه الوصل من إيهام الاشتراك في الحكم، لأنَّ المعنى حينئذ سيكون: مكَّنَّا ليوسف في الأرض لنعلِّمه من تأويل الأحاديث وليكون الله غالبًا على أمره. فالفصل أفاد أنَّ غلبة الله تعالى على أمره شأنٌ ثابت لا يتغيَّر، سواء في أمر يوسف عليه السلام أو قبله أو بعده!

سرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة بعد نون العظمة:

الله تعالى عظيم لا يكبره شيء، عزيز لا يغلبه شيء، ولا يعطِّل مشيئته شيء

التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ بعد نون العظمة ﴿مَكَّنَّا﴾ جاء للمبالغة في التَّعظيم والتَّفخيم؛ لأنَّه من أعجب العجب أنَّ مَن وقع له

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/285.
(3) النحاس، إعراب القرآن: 2/197.

التَّمكين هو مَن فُعل به هذه الأفعال من كراهة إخوته له، وتفريقهم بينه وبين أبيه ﷺ، وإلقائهم إيَّاه في غيابة الجُبِّ، والتقاط السَّيَّارة له، وبيعهم إيَّاه بثمن بخس... إلخ.

وهذا يشي ببُعد من أُجرِيت عليه مثل هذه الأقدار أن يكون ملكًا عزيزًا؛ فأنّ يتمكَّن مِن أرض هو فيها مع كونه غريبًا مستبعدًا فردًا لا عشيرة له فيها ولا أعوان لهُوَ أعجب العجب؛ لذلك قال تعالى نافيًا لهذا العجب: ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ أي: الملك الأعظم الذي لا يعجزه شيء، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه[1].

بلاغة التَّعبير باسم الفاعل: ﴿غَالِبٌ﴾:

التَّعبير باسم الفاعل ﴿غَالِبٌ﴾ يفيد الثُّبوت والدَّيمومة، وعدم تغيُّر ذلك مهما تقلَّبت الحوادث، أو تعاورت الأزمان، فالله تعالى غالب في كلِّ حين، وفي كلِّ أمر، وفي كلِّ حال، فتلك صفة عظيمة متعلِّقة بذاته سبحانه.

معنى حرف الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالته:

يدخل الحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ بعد مادَّة الغَلَب ونحوها على الشَّيء الذي يتوقَّع فيه النِّزاع، كقولهم: غلبناهم على الماء. و(أمرُ الله) هو ما قدَّره وأراده، فمَن سعى إلى عمل يخالف ما أراده الله فحاله كحال المنازِع على أن يحقِّق الأمر الذي أراده، ويمنع حصول مراد الله تعالى ولا يكون إلَّا ما أراده الله تعالى، فشأن الله تعالى كحال الغالب لمنازِعه. والمعنى: والله متمِّمٌ ما قدَّره[2].

توجيه عود الضَّمير في: ﴿أَمۡرِهِۦ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ فيه وجهان:

الأوَّل: غالب على أمر نفسه ﷻ؛ لأنَّه فعَّال لما يريد، لا دافع لقضائه، ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه.

قدرةُ الله تعالى لا متناهية، وليست مقصورة أو محدودة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/247.

والثَّاني: والله غالب على أمر يوسف ﷺ؛ يعني: أنَّ انتظام أموره ﷺ كان إلهيًّا، وما كان بسعيه، وإخوته أرادوا به كلَّ سوء ومكروه، والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى ودبَّر، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون أنَّ الأمر كلَّه بيد الله.

فعلى التَّوجيه الأوَّل يكون إخبارًا منبِّهًا على قدرة الله ﷻ ليس في شأن يوسف ﷺ خاصَّةً بل عامًّا في كلِّ أمر[1].

دلالة إضافة الضَّمير إلى المصدر في: ﴿أَمۡرِهِۦ﴾:

الله سبحانه لا ينازعه منازع، ولا يعترض مشيئته معترض، إذ إنَّه ليس لأحد معه أمر

في إضافة الأمر إلى الله ﷻ إشارة إلى أنَّ الأمر كلَّه لله سبحانه، وليس له شريك ينازعه الأمر في أيِّ شيء، فهو سبحانه الغالب على كلِّ أمر، لا ينازعه منازع، ولا يعترض مشيئته معترض، إذ إنَّه ليس لأحد معه أمر، كما يقول سبحانه: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123][2].

ومَن تأمَّل في أحوال الدُّنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقَّن أنَّ الأمر كلَّه لله تعالى، وأنَّ قضاء الله غالب[3]، وهذا العموم مأخوذ من إضافة المصدر؛ لأنَّ المصدر المضاف من طرق العموم[4]، ويدخل في عموم المصدر المضافِ شؤونُه سبحانه المتعلِّقة بيوسف ﷺ دخولًا أوَّليًّا[5]؛ فكم مِن أمر كان في هذه القصَّة وفي غيرها يرشد إلى أنَّه لا أمر لغيره سبحانه[6]!

سرّ التذييل، وعلاقته بالمعنى:

وُعود الله تعالى ناجزة، ومشيئته سبحانه نافذة

جملة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ معترضة في آخر الكلام، وتذييل؛ لأنَّ مفهومها عامٌّ يشمل غلَبَ الله سبحانه إخوةَ يوسف ﷺ بإبطال كيدهم[7].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/231.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1250.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/436.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 5/165.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/399.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/50.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/247.

وقد قُصِد بهذا التَّذييل بيان قدرة الله تعالى، ونفاذ مشيئته سبحانه. فأمرُ الله هنا هو ما قدَّره وأراده؛ أي: والله تعالى متمِّم ما قدَّره وأراده، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا ينازعه فيه منازِع، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك حقَّ العلم، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال[1]. وهو تتميم إذا أُريد به يوسف ﷺ؛ أي: تتميم لما دبَّره الله تعالى فيه، وأنَّ العاقبة له[2].

معنى ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ودلالتها:

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استدراك على ما يقتضيه حكم غلبة الله تعالى لكلِّ شيء من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تُجهَل، لأنَّ عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره[3].

فائدة الاحتراس في خاتمة الآية:

كلَّت عن إدراك معلومات الله الأفهام، وتقاصرت عن إدراك حكمته الأوهام

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ احتراس لإنصاف القِلَّة من النَّاس الذين هم بخلاف الأكثر، ومدح الذين يعطيهم الله تعالى من فضله ما يجعلهم لا يندرجون في الكثرة التي لا تعلم، بل هو سبحانه يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم[4]، فقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ دليل على أنَّ الأقلَّ يعلمون الحقائق كيعقوب ﷺ، الذي يعلم أنَّ الله سبحانه غالب على أمره[5].

فقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ إيماء إلى أنَّ الأقلَّ يعلمون ذلك؛ كيعقوب ﷺ، فإنَّه يعلم أنَّ الله غالب على أمره، فها هي ذي أقواله

(1) طنطاوي، الوسيط: 7/336.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/286.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/248.
(4) طنطاوي، الوسيط: 7/336.
(5) الزحيلي، المنير: 12/236.

السَّابقة واللَّاحقة صريحة في ذلك، ولكنَّ علمَه ﷻ إجماليٌّ لا تفصيليٌّ؛ إذ لا يحيط بما تخبِّئه الأقدار[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع المنفي:

يفيد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، وقد دلَّ في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ عدم علم النَّاس بالغيب أمر متجدِّد بتجدُّد الحوادث، ومستمرٌّ باستمرار جريانها عليهم، فكلُّ حدث منها يخبِّئ في طيِّه من حُكم الله تعالى وحكمته، وعجيب تقديره وترتيبه وقدرته ما لا يعلمه أحد إلَّا هو ﷻ.

حذف المفعول في: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون أنَّ الأمر كلَّه بيده سبحانه، فيأتون ويذرون زعمًا أنَّ لهم شيئًا من الأمر. أو: لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه ﷻ[2]. فغرض الحذف هاهنا قصد التَّعميم مع الاختصار في اللَّفظ[3]، مع ما فيه من جمال الرِّعاية على الفاصلة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

امرأة وزوج:

يُستعمَل لفظ امـــرأة إنْ لَـم تُحقَّق الزَّوجيَّة أو عُطِّلَت، ولفظ الـزَّوج في إثبات صحَّة الزَّوجيَّة

التَّزويج علاقة شرعيَّة تدلُّ على قوَّة ارتباط الزَّوجين، وهو من أمر الدِّين؛ لذا ورد لفظ الزوج والأزواج في مواطن إثبات صحَّة العلاقة الزَّوجيَّة، وأنَّها لا تنقضي حتّى بعد الموت؛ لأنَّ الزَّوجيَّة تمتدُّ إلى الآخرة، فأشارت الآيات إلى تلك الزَّوجيَّة مقترنة بآدم عليه السلام وزوجه، والنبيّ ﷺ وأزواجه؛ فإذا لم يكن في العلاقة الزَّوجيَّة بين الشريكين مودَّة ورحمة وسكن وتوافق وانسجام أو كان بينهما

(1) المراغي، تفسير القرآن: 12/127.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/163.
(3) الإيجي، جامع البيان: 2/217.

اختلافٌ في الإيمان، استُعمِل في القرآن لفظُ امرأة؛ لذلك استُعمِل لفظُ امرأة من دون الزوج أو الزَّوجة في قول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]، وقوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]؛ فقد كان نوح ولوط ﷺ نبيَّين، وكانت امرأةُ كلٍّ منهما خائنةً غيرَ مؤمنة، وكان فرعونُ كافرًا وكانت امرأته مؤمنةً[1].

وإذا كان مساق الكلام في ذِكر الولادة والحمل، استُعمِل لفظ امرأة دون الزَّوج، وإن كانت الزَّوجيَّة متحقِّقةً بينهما؛ وذلك لأنَّ صفة الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، وهي متأتّية من حيث كونها امرأة لا من حيث إنها زوج، فضلًا عن أنَّ الزَّوج يقع فيه اللَّبس؛ لعمومه في الذَّكر والأنثى.

أمَّا المرأة فليس يشركها في لفظها الرجل، في سورة مريم: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: 5]، وقال ﷻ: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: 29].

ومن وجه آخر قد تكون الحكمةُ من ذِكر لفظ امرأة في هذه المواضع تعطُّلَ الزَّوجيَّة بالعقم، ويؤيِّد هذا مجيءُ لفظ الزَّوج بعدما استجاب الله دعاء زكريّا ووهب له يحيى ﷺ، وتحقَّقت الزوجيَّةُ بهذه الاستجابة، قال الله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90][2].

أمّا قول الله ﷻ: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 37] فقد استُعمِل فيه لفظ الزَّوج للتقريب بينهما، وليُشعرَ النبيُّ ﷺ مولاه بأنَّه وزوجته كليهما معًا عنده بمنزلةٍ واحدة، وأنَّه أهلٌ لها، كما هي أهلٌ له، وإن اختلفا في النَّسب، بل رسول الله ﷺ هو الذي زوَّجَ ابنة عمته زينب من مولاه زيد بن حارثة؛ لتكون سكنًا له، ويكون سكنًا لها، ولو قيل: أمسِك عليك امرأتك، لجعل زيدًا تنتابه الظّنون في ما يتعلَّق بعدم أهليّته لها لعلوِّ نسبها على نسبه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الخلاف

(1) خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 100، 101، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 596.
(2) خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 101، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 596.

بينهما كان من تدبير الله ﷻ؛ لينتهيَ هذا الخلافُ إلى تطليق زيد لها وزواج النبيّ ﷺ منها؛ ليبطل بذلك عادة التبنِّي عند العرب قبل الإسلام[1].

المثوى والمأوى:

الثَّواء: الإقامة مع الاستقرار[2]. والمأوى: كل مكان يُؤوَى إليه ليلًا أو نهارًا[3]. والفرق بين المثوى والمأوى هو أنَّ المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث. أمَّا المأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ولو مؤقّتًا[4].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 596، 597.
(2) الراغب، المفردات: (ثوي).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (أوي).
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم: 2/270.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»